ٱلثَّلَٰثَة

ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ

المهندس عدنان الرفاعي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

.. مَنْ يُدرك حقيقةَ كتاب الله تعالى ، بأنَّه ينتمي لعالم الأمر ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، ومَنْ يُدرك حقيقةَ عالم الأمر بأنَّه فوق الزمان والمكان ، وبأنَّه يتميّز بذلك عن عالم الخلق الخاضع للزمان والمكان ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .. مَنْ يُدرك ذلك .. يُدركُ أنَّ دلالات كتاب الله تعالى لا يمكن أن تكون محمولةً بالأحداث التاريخيّة ، ويدرك أنَّها تحمل أحكاماً لكلِّ زمانٍ ومكان ، ويدرك أنَّ الأحداث التاريخيّة محمولة بالنصِّ القرآني وليست حاملة له ، ويدرك أنَّ الناسخ والمنسوخ أكذوبة كبرى ، لأنَّه ينطوي على تناقضات ، وعلى كون النصِّ القرآني خاضعاً للزمان والمكان .. ويدرك ويدرك ويدرك .....

وما يجب أن نعلمه أنَّ المنظومة الثقافية الحاملة لسمت توجّه إدراكنا لدلالات كتاب الله تعالى ودلالات الكلمات والعبارات القرآنيّة ، تمَّ تأطيرها بدلالات تاريخيّة حاملها

الموروث ، لا تخرج عن المفاهيم التاريخيّة للأجيال الأولى .. كلُّ ذلك أدّى إلى عدم رؤية الدلالات التي يحملها كتاب الله تعالى ، والمجرَّدة عن الزمان والمكان والأحداث التاريخيّة ..

ومن يقرأ التفسير الموروث يرى ذلك بعينيه ، ويرى كيف أنَّ الكثير من آيات كتاب الله تعالى لا تُرى دلالاتُها – في التفسير الموروث – إلاّ من مناظير أحداث تاريخيّة محدَّدة وقعت – كما يقولون – في الجيل الأوَّل ..

والأمثلة في التفسير الموروث كثيرة ، لدرجة باتت فيها دلالات كتاب الله تعالى (من منظار التفسير الموروث) خاصّة بالجيل الأوَّل ، وبرجالاته ، وبأحداثه الخاصّة ..

وسنقف – بإذن الله تعالى – عند آياتٍ كريمة تمَّ حصر دلالاتها – في التفسير الموروث بقصّة قيل إنَّها حصلت في الجيل الأوَّل .. يقول تعالى ..

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ

﴿ ٣٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١١٧ – ١٢١]

.. كما قلنا .. هذه الآيات الكريمة تمَّ تفسيرها في الموروث على أنَّها خاصّة بحادثة تاريخيّة ، هي غزوة تبوك .. والثلاثة الذين خُلِّفوا حدَّدهم التفسير الموروث بأنَّهم الذين تخلَّفوا في غزوة تبوك : كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن ربيعة ، وكلّهم من الأنصار ..

.. وقيل (في التفسير الموروث) ، الثلاثة الذين خُلِّفوا هم : الذين أُرجئوا في سورة التوبة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٦] ، هلال بن أمية ومرارة بن ربعي وكعب بن مالك ..

.. وسنقف – إن شاء الله تعالى – عند الصياغة اللغويّة لهذه الآيات الكريمة بشكلٍ مُجَرَّدٍ عن أيِّ تفسيرٍ موروث ، لنرى حقيقة ما تحمل من أحكام لكلِّ جيلٍ في كلِّ زمانٍ ومكان ..

.. لنقف عند الآية الأولى ..

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٧]

.. نرى في هذه الآية الكريمة ..

١ – توبة الله تعالى ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ ، تتعلَّق بها ثلاثة أمور مستقلّة ..

أ – توبة الله تعالى على النبيِّ ﷺ ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ..

ب – توبة الله تعالى على المهاجرين ﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ ..

ج – توبة الله تعالى على الأنصار ﴿ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ ..

.. إذاً هناك توبة واحدة ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ﴾ شملت هذه الأمور الثلاثة ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ .. فهذه الأمور الثلاثة جاءت مجتمعةً تحت إطار توبة واحدة ، فكلمة ﴿ تَّابَ ﴾ وردت مرّة واحدة (في هذه العبارة القرآنيّة) لتتعلّق بها هذه الأمور الثلاثة كجملة واحدة ..

٢ – ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ والذين جاءوا تحت إطار توبة واحدة ، هناك إطارٌ واحدٌ يجمعهم أيضاً هو ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ ..

.. والضمير في كلمة ﴿ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ يتعلّق بالله تعالى ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ .. والخطأ الأكبر في التفسير الموروث يكمن في إعادتهم لهذا الضمير إلى النبيِّ ﷺ ..

.. الصياغة اللغويّة لهذه العبارات القرآنيّة تُؤكِّدُ استحالة تعلّق الضمير بغير الله تعالى ، وذلك لسببين ..

أ – الذي تاب على ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ هو الله تعالى ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ .. فكما أنّه لا يمكن إعادة الضمير إلى المهاجرين أو الأنصار ، كذلك لا يمكن إعادة

الضمير إلى النبيِّ ﷺ ، فكلمة ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ تتعلَّق بالعبارة ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ كجملة واحدة ..

وعودة الضمير إلى النبيِّ ﷺ تقتضي صياغة أُخرى ، بمعنى يجب إخراج ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ من العبارة ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ .. وابتداء عبارة جديدة تفيد تعلّق الاتّباع بالنبيِّ ﷺ ، مثلاً (الذين اتّبعوا النبي) ..

ب – كلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ليست أقرب المذكورين إلى كلمة ﴿ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ .. وحتى لو فرضنا جدلاً انَّ كلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ أقرب المذكورين إلى كلمة ﴿ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ فإنَّ صياغة النصِّ القرآني لا تُسعفهم فيما يذهبون إليه .. فعلى أيِّ أساس يقولون : إنَّ الضمير المتّصل الهاء في كلمة ﴿ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ يعود إلى كلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ؟!!! ..

٣ – ورود كلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ في هذه العبارة القرآنيّة ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ يؤكِّد أنَّ ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ عنصرٌ من هذه العناصر الثلاثة .. فصفة النبوّة – كما بيّنت في كتبي – أقرب إلى صفة الجانب الشخصي ، وهي تعني الخلاص والنقاء والطهارة ..

.. والتوبة على النبيّ ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ ، هي توبة من الله تعالى على صفة تتعلَّق بالجانب الشخصي ، كما هو الحال في توبة الله تعالى على صفتي ﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ .. وكلُّ ذلك يختلف عن صفة الرسول المتعلّقة بالرسالة كمنهج يُطلَب من الجميع اتّباعه سواء النبي أم المهاجرون أم الأنصار ..

ما نريد قوله هو أنَّ كلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ لا تختلف عن كلمتي ﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ في مسألة توبة الله تعالى على هذه العناصر الثلاثة ، وأنَّه لا علاقة لأيٍّ من هذه العناصر الثلاثة في المُتَّبع المعني بقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ ..

٤ – المُتَبَع المعني بكلمة ﴿ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ هو الله تعالى .. وقد ورد في كتاب الله تعالى اتّباعٌ لهدى الله تعالى ..

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨]

.. وهناك اتّباعٌ لما أنزله الله تعالى ..

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ٣]

.. وهناك اتّباع لرضوان الله تعالى ..

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٢]

.. وهناك اتّباع لكتابه الكريم ..

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥]

.. وهناك اتّباع لآيات الله تعالى ..

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه : ١٣٤]

.. وهناك اتّباع لسبيل الله تعالى ..

﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧]

.. وهناك اتّباع الحقّ منه جلَّ وعلا ..

﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد : ٣]

.. والنبيُّ ﷺ هو ذاته هو مطالب باتّباع ما يُوحى إليه ..

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٠٦]

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ ﴾ [الأنعام : ٥٠]

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ ﴾ [الأعراف : ٢٠٣]

.. واتّباعُ النبيِّ ﷺ لما يُوحى إليه هو اتّباعه لكتاب الله تعالى ..

﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [القصص : ٤٨ – ٤٩]

والصياغة اللغويّة للنصِّ التالي تبيّن أنَّ كلمة ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ۚ ﴾ فيه تتعلَّق بالله تعالى :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف : ٥٩ – ٦٢]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ نرى أنَّ الضمير في كلمة ﴿ أَنْعَمْنَا ﴾ يعود إلى الله تعالى ، وكذلك في العبارة التالية لها ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ نرى أنَّ الضمير الفاعل في كلمة ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ ﴾ يعود إلى الله تعالى .. وكذلك في الآية التالية لها مباشرة ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ نرى

أنَّ الضمير المستتر في كلمة ﴿ نَشَآءُ ﴾ وأنَّ الضمير المتّصل في كلمة ﴿ لَجَعَلْنَا ﴾ ، كلاهما يعود إلى الله تعالى ..

ومن الطبيعي في هذا السياق أن يكون الخطاب في الآية التالية مباشرة ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ من الله تعالى ، مباشرة .. وبالتالي فالاتّباع المعني بكلمة ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ۚ ﴾ هو اتّباعٌ لله تعالى .. وتأتي الآية التالية مباشرة ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ لتبيّن خطاباً من الله تعالى مباشرةً ..

.. إذاً .. الاتّباع يكون لله تعالى ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ۚ ﴾ وذلك عبر السير في صراط الله تعالى المستقيم ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ..

.. من هنا نرى أنَّ عودة الضمير في كلمة ﴿ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ إلى الله تعالى ، من خلال اتّباع منهج الله تعالى ، هو أمرٌ له قرينة في كتاب الله تعالى ..

٥ – إذاً هناك ثلاثة عناصر اتّبعت الله تعالى ، وكان ذلك سبب توبة الله تعالى عليها ، وهذه العناصر هي : ﴿ ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ ..

العنصر الأوَّل هو ﴿ ٱلنَّبِىِّ ﴾ ، وبالتأكيد يعني في الجيل الأوَّل محمّداً ﷺ كإسقاط دلالات لهذا النصِّ في ذلك الجيل .. ولكن .. كإسقاط دلالات في الأجيال اللاحقة فإنَّ هذه الكلمة ﴿ ٱلنَّبِىِّ ﴾ تمثِّلُ قمّة الهرم من النقاء والخلاص والطهارة ، تلك القمّة التي لن يصلَها شخصٌ بعد محمّد ﷺ .. ولكنْ .. كلُّ إنسان له درجته على سلّم هذا الهرم ، والتي تتعلّق بمدى خلاصه ونقائه وطهارته ..

العنصر الثاني هو ﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ ، وبالتأكيد فإنَّ هذا العنصر يعني في الجيل الأوَّل الذين هاجروا إلى المدينة اعتقاداً بأنَّ العنصر الأوَّل ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ على حق ، وذلك كإسقاط لدلالات هذا النصِّ في ذلك الجيل .. ولكن .. كإسقاط دلالات في الأجيال اللاحقة فإنَّ هذه الكلمة ﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ تمثِّلُ في كلِّ زمانٍ ومكان من يهجر الباطل هارباً بخلاصه ونقائه وطهارته من ظلمات الضلال ..

العنصر الثالث هو ﴿ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ ، وبالتأكيد فإنَّ هذا العنصر يعني في الجيل الأوَّل الذين نصروا العنصرين السابقين اعتقاداً منهم بأنَّ العنصر الأوَّل ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ على حق ، وذلك كإسقاط لدلالات هذا النصِّ في ذلك الجيل .. ولكن .. كإسقاط دلالات في الأجيال اللاحقة فإنَّ هذه الكلمة ﴿ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ تمثِّلُ في كلِّ زمانٍ ومكان من ينصر الحقَّ نتيجة خلاصه ونقائه وطهارته ..

إنَّ ورود كلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ دون كلمة (محمّد) ، يحمل إطلاقاً لكلِّ زمانٍ ومكان ، ويتجلّى هذا الإطلاق في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : ١] ، فقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ يعني (كإطلاق فوق التاريخ) : يا أيّها النقي الخالص الطاهر .. فالأحكام المحمولة بالعبارات التالية بعد هذه العبارة القرآنيّة (أحكام الطلاق) هي أحكامٌ صارمة ويحتاج تطبيقها إلى هذا الخلاص والنقاء والطهارة ، وقد بيّنت ذلك – في كتبي – بشكل جلي ..

.. إذاً .. نحن أمام ثلاثة عناصر هي : [[﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ،، ﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ ،، ﴿ وَٱلْأَنصَارِ ﴾]] ، إسقاطها التاريخي في الجيل الأوَّل هو إسقاطٌ معلوم بمحمّد ﷺ وبالرجال المهاجرين إلى المدينة وبالمناصرين لهم من أهل المدينة .. أمَّا الدلالات المطلقة

لهذه العبارة القرآنيّة في كلِّ زمانٍ ومكان فهي واسعة لتشمل مبدأ الخلاص والنقاء والطهارة ومن يهاجر (معنويّاً وماديّاً) في سبيله ومن ينصره معنويّاً وماديّاً ..

٦ – العبارة القرآنيّة ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ ، تبيّن حيثيّات العمل الذي قام به من يتمثّل المبدأ ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ بنسبة خلاصه ونقائه وطهارته ، وذلك في اتّباعه لله تعالى ، وكذلك من يتمثّل الصفتين ﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ في اتّباعه لله تعالى ، في كلِّ زمانٍ ومكان ..

٧ – العبارة القرآنيّة ﴿ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ ، تُحدِّد دائرة اتّباع هذه العناصر الثلاثة لله تعالى ، فاتّباع هذه العناصر الثلاثة لله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ والذي أدّى إلى توبة الله تعالى عليهم ، هو ﴿ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ .. فما هي ﴿ سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ ؟ ..

.. العسر هو الأمر الصعب الذي تُسَدُّ فيه الأبواب أمام مخرجٍ لهذا الأمر العسير ..

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة : ٢٨٠]

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٦]

﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴾ [الطلاق : ٦]

.. فالعبارة القرآنيّة ﴿ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ تعني في الساعة التي ضاقت فيها الأمور ، وسُدَّت بها أبواب الخروج من الموقف العسير الذي كانت به هذه العناصر الثلاثة ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ .. فهذه العبارة تُبيّن الموقف الذي كانت فيه هذه العناصر الثلاثة ..

٨ – العبارة القرآنيّة ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ ، تبيّن ما وصل إليه بعض أفراد هذه العناصر الثلاثة .. وكلمة ﴿ كَادَ ﴾ ، تبيّن أنَّ هؤلاء قاربت قلوبهم الزيغ ، ولكنّها لم تزغ ..

٩ – العبارة القرآنيّة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ ، تبيّن لنا توبةً أخرى ، بعد التوبة الأولى ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ .. فالتوبة الأولى كانت نتيجة أنَّهم ﴿ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ .. والتوبة الثانية كانت نتيجة أنَّ الله تعالى ﴿ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ ..

وتأتي الآية الثانية ..

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨]

.. وفي هذه الآية الكريمة نرى الأمور التالية ..

١ – العبارة ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ ، معطوفة على العبارة ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ ، بمعنى : وتاب الله تعالى على الثلاثة الذين خُلِّفوا ..

٢ – كلمة ﴿ ٱلثَّلَٰثَةِ ﴾ نراها معرّفة بأل التعريف ، وهذا له دلالته في كتاب الله تعالى ، فورود هذه الكلمة معرّفةً بأل التعريف يعني أنَّ هؤلاء الثلاثة ورد في كتاب الله تعالى ما يتعلّقون به .. ولتقريب المسألة إلى أذهاننا لنأخذ المثال التالي ..

.. يذكر لنا كتاب الله تعالى أنَّ أبا إبراهيم عليه السلام (وهو عمّه وليس والده كما بيّنت في كتبي) هو ﴿ ءَازَرَ ﴾ ، وذلك في أوَّل نصٍّ في كتاب الله تعالى تُذكر فيه كلمة ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ المتعلّقة بإبراهيم عليه السلام ، وهذا النصُّ هو في سورة الأنعام ..

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤]

.. بعد هذا النصِّ في سورة الأنعام والذي يبيّن أنَّ أبا إبراهيم عليه السلام (عمّه) هو ﴿ ءَازَرَ ﴾ ، تأتي النصوص القرآنيّة المصوِّرة لما قاله إبراهيم عليه السلام ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ دون ذكر اسم ﴿ ءَازَرَ ﴾ ، فكلمة ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ في هذه النصوص تعني ﴿ ءَازَرَ ﴾ كونها تأتي بعد النصِّ القرآني في سورة الأنعام والذي يبيّن لنا أنَّ أبا إبراهيم عليه السلام المعني هو ﴿ ءَازَرَ ﴾ ..

﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤]

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : ٤١ – ٤٢]

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥١ – ٥٢]

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء : ٦٩ – ٧٠]

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات : ٨٣ – ٨٥]

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦]

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤]

.. فالقرآن الكريم يُفسِّرُ بعضُه بعضاً ، ودلالات عباراته متكاملة في تصوير الدلالات والأحكام التي يحملها ..

ولنأخذ مثالاً آخر هو مسألة حوت موسى عليه السلام وفتاه في كتاب الله تعالى ..

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٦٠ – ٦٣]

فالقرآن الكريم في أول ذكر للحوت الذي كان مع موسى عليه السلام وفتاه أورده بتعريف الإضافة ﴿ حُوتَهُمَا ﴾ ، وبعد ذلك أورده معرّفاً بأل التعريف ، لأنَّه أصبح معروفاً في كتاب الله تعالى ﴿ ٱلْحُوتَ ﴾ ..

.. ولذلك فحوت يونس عليه السلام جاء معرّفاً بأل التعريف ..

﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : ١٤٢]

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم : ٤٨]

وقد بيّنت في الفصل الأوّل من النظريّة الرابعة (الحكمة المطلقة) أن حوت يونس عليه السلام لا يختلف (من حيث المهمّة على الأقل) عن حوت موسى عليه السلام ..

.. إذاً .. ورود كلمة ﴿ ٱلثَّلَٰثَةِ ﴾ معرّفة بأل التعريف دليلٌ على أنَّ الثلاثة المعنيّين في هذا النصِّ الكريم جرى لهم تعلُّق في كتاب الله تعالى ..

٣ – هؤلاء ﴿ ٱلثَّلَٰثَةِ ﴾ صفتهم هي ﴿ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ .. ونرى أمرين في كلمة ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ :

أ – ترد بصيغة المبني للمجهول ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ ..

ب – لا يُوجَد في ظاهر صياغتها ما يبيّن عن ماذا ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ ..

.. إنَّ ورود كلمة ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ بصيغة المبني للمجهول يفيد أنَّ هؤلاء الثلاثة إنّما خُلِّفوا ليس باختيارهم من جهة ، دون أن يعني ذلك براءتهم في التخلّف عن الأمر المعني من جهةٍ أُخرى .. فصيغة المبني للمجهول مع دلالات العبارات التالية تُبيِّن أنَّ الإرادة عندهم لم تكن كما يجب في عدم التخلّف المعني ، مع وُجود عوامل خارجية أوصلتهم إلى الحالة ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ ..

.. وعدم ورود ما يدلّ في صياغة كلمة ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ على الأمر الذي خُلِّفوا عنه ، مع ورود هذه الكلمة بهذه الصيغة ، مع ورود كلمة ﴿ ٱلثَّلَٰثَةِ ﴾ معرّفةً بأل التعريف ، كلُّ

ذلك يدفعنا إلى العودة إلى السياق السابق لهذه العبارة القرآنيّة ، لنقرأ منه الأمر المتعلِّق بما خُلّفوا عنه ..

٤ – رأينا في السياق السابق لهذه العبارة القرآنيّة ، في الآية السابقة ، أنّنا أمام ثلاثة عناصر .. هي : ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ ..

.. وكنّا قد بيّنا أنَّ كلمة ﴿ ٱلنَّبِيِّ ﴾ تعني مبدأ الخلاص والنقاء والطهارة .. وأنَّ كلمة ﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ تعني من يهاجر (معنويّاً وماديّاً) في سبيل هذا المبدأ .. وأنَّ كلمة ﴿ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ تعني من ينصر (معنويّاً وماديّاً) هذا المبدأ ..

.. وهذه العناصر الثلاثة بإسقاطاتها المجرّدة عن التاريخ في كلِّ زمانٍ ومكان ، إنّما اختار متّبعو الله تعالى عبرها اتّباعهم هذا بإرادتهم واختيارهم ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ ..

هذه العناصر الثلاثة ، هناك من لا ينتمي إلى أيٍّ منها مع كونه مؤمناً ويجب عليه الانتماء إلى عنصرٍ من عناصرها ، وذلك لاجتماع ضعفٍ في إرادته مع عوامل خارجيّة ، ممّا أدّى إلى جعله متخلِّفاً عن الانتماء إلى أيِّ عنصرٍ منها ..

من هنا ندرك الرابط الذي يربط العبارة القرآنيّة ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ مع الآية السابقة لها مباشرة .. فهؤلاء الثلاثة الذين خُلّفوا هم مجموعة المؤمنين الذين يتوجّب عليهم الانتماء إلى العناصر الثلاثة السابقة ، ولكنّهم لم ينتموا لأيٍّ منها نتيجة مزاوجة بين إرادتهم وبين عوامل خارجيّة منعتهم عن ذلك ، وهذا ما رأيناه بورود كلمة ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ بصيغة المبني للمجهول ..

٥ – هؤلاء الذين خُلِّفوا هم من جملة المؤمنين ، وضميرهم حي .. لذلك استيقظ ضميرهُم الحيّ وأدركوا ضعف إرادتهم وتقصيرهم في الالتحاق بأيِّ عنصر من هذه

العناصر الثلاثة ، وبدأ ضميرهم الحي يتفاعل مع هذه الحالة حتى وصل بهم الأمر إلى حالة : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ﴾ ..

٦ – كلمة ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ والتي تربط بين العبارة القرآنيّة ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ مع العبارة القرآنيّة ﴿ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ﴾ ، تبيّن تفاعل توبة الله تعالى عليهم تفاعلاً موازياً لتفاعل أنفسهم وندمهم بما قصّروا به من عدم انتمائهم إلى هذه العناصر الثلاثة ..

٧ – في هذا السياق لا بدَّ من الوقوف عند مفهوم التوبة في كتاب الله تعالى .....

التوبة في كتاب الله تعالى تعني العودة عن الأمر موضوع التوبة ..

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٥٤]

﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩]

﴿ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة : ٧٤]

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٦]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١]

.. والتوبة بمعنى العودة عن السوء ، لا بدَّ أن تكون مسبوقةً بعمل السيئات ..

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٧]

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٩]

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٥٤]

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٥٣]

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٩]

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٤ – ٥]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠]

.. ولذلك فإنَّ التوبة تُسْبَقُ باستغفار الله تعالى ..

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود : ٣]

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود : ٥٢]

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١]

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠]

.. والتوبة تُتْبَعُ بالعمل الصالح ..

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٠]

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٨٩]

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٦]

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٦]

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٩]

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة : ٥]

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١]

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم : ٦٠]

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢]

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴾ [الفرقان : ٧٠ – ٧١]

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ [القصص : ٦٧]

.. والتوبة تكون مسبوقةً ببيان الله تعالى لصراطها ..

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨]

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦]

وهذا المعنى للتوبة بأنَّها تُسْبَقُ ببيان الله تعالى لصراطها ، نستشفّه من قوله تعالى ..

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧]

.. والتمادي في الكفر والعصيان والتردّد بين الكفر والإيمان والذي ينتهي بالكفر ، يؤدي إلى عدم المغفرة وإلى عدم نيل هداية الله تعالى ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ [النساء : ١٣٧]

.. وعدم الالتزام بهداية الله تعالى وصراطه المستقيم متعلِّقٌ بعدم الإيمان ، وبالتالي بالانغماس في الكفر والضلال ، وهذا يؤدّي إلى عدم قبول التوبة ، كون التوبة – كما رأينا – تكون مسبوقةً ببيان الله تعالى لصراطها ، وتعني العودة عن موضوع التوبة إيماناً والتزاماً بهدى الله تعالى وببيانه لها ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٠]

.. وهكذا فالتوبة هي عملٌ يعود به الإنسان إلى الله تعالى ، وهذا العمل يكون عبر اتّباع أحكام الله تعالى التي يبيّنها من أجل تلك العودة ..

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٩٢]

.. فالعبارة القرآنيّة ﴿ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ تبيّن لنا أنَّ حكم الله تعالى المبيّن في هذه الآية الكريمة لمن يقتل مؤمناً ، هو تبيانه لسلوك التوبة التي يعود فيها التائب إلى الله تعالى ..

ولمّا كانت التوبةُ مسبوقةً بتبيان الله تعالى لصراطها (كما نرى) ، ولمّا كانت أحكام الله تعالى تحمل مُرادَه جلَّ وعلا ، فإنَّ التائب هو سالكٌ لمراد الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ٢٧] ، وبالتالي فقبول الله تعالى لتوبة التائب هو قبولٌ منه ، وهو في الوقت ذاته قبولٌ عنه ، لأنَّ التائب بسلوكه للتوبة إلى الله تعالى إنّما وضع نفسه في ساحة العاملين بمراد الله تعالى ، وأصبح محسوباً على الملتزمين بمنهج الله تعالى ، ووليُّه في ذلك هو الله تعالى ..

فبسلوكه منهج الله تعالى أصبح من عباد الله تعالى ، ووليّه الله تعالى ، ولذلك يقبل الله تعالى هذه التوبة عنه كونه دخل في عباد الله تعالى ، ووليّه بذلك هو الله تعالى ..

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٤]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى : ٢٥]

.. ولذلك ليس من المصادفة أنْ نرى كلمة ﴿ عِبَادِهِۦ ﴾ خلف العبارتين القرآنيّتين المصوّرتين لقبول الله تعالى التوبة عن التائب [[﴿ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ،، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾]] ..

.. ممّا سبق نرى عظمة الصياغة القرآنيّة بورود كلمة ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ ، التي تربط العبارة القرآنيّة ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ مع العبارة القرآنيّة ﴿ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ ...

فتوبة الله تعالى على هذه العناصر الثلاثة التي خُلِّفَت بما تعنيه من تدرّج قبول الله تعالى لندمهم واستيقاظ ضمائرهم ﴿ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ ، هذه التوبة هي في الوقت ذاته سبب إحياء هذه الضمائر وإشعال الندم في نفوسهم ..

.. فمراد الله تعالى لتوبة الإنسان ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ٢٧] هو ما تركهم دون عقاب فسحاً لِما أحيى ضمائرهم ولِما تدرّج بها ، حتى وصلوا للحالة ﴿ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ ..

.. فاكتمال هذه التوبة عليهم هو أن وفّق الله تعالى قلوبهم وتداركها حتى لا تزيغ ، فاسحاً لهم إمكانية الرجوع ، عبر إحياء ضمائرهم وإشعال الندم في نفوسهم .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ تبيّن إدراكَهم لتقصيرهم فيما تخلّفوا عنه

، وكلُّ ذلك يدخل ضمن إطار التوبة الأولى عليهم ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ ..

فهذه التوبة الأولى ساحتها الخروج من حالة التقصير التي خُلِّفوا بها ..

٨ – في العبارة القرآنيّة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ نرى أنَّ كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ تبيّن تراخياً في الأمر بين التوبة الأولى : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ ، والتوبة الثانية : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ ..

فاكتمال توبة الله تعالى الأولى عليهم ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ ، والتي أخرجتهم من الحالة التي هم فيها ، جاءت بعدها توبةٌ منه جلَّ وعلا ، حاملها البيان والتوفيق لسبيل عودتهم إلى أن يسموا بالقرب من الله تعالى ، وأن يكون حالهم بعد التوبة الثانية مشابهاً لحال العناصر الثلاثة في الآية السابقة ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ بعد التوبة الأولى ..

.. والعبارة القرآنيّة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تبيّن سبب التوبة الثانية عليهم ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ ..

٩ – ما بين الآيتين السابقتين نرى تقابلاً ..

أ – العناصر الثلاثة في الآية الأولى تاب الله تعالى عليها توبتين ..

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ..

توبة ناتجة عن صبرهم واتّباعهم لله تعالى في ساعة العسرة ، وتوبة لرفعهم درجات على سلّم القربى من الله تعالى ..

.. والعناصر الثلاثة الذين خُلِّفوا عن الالتحاق بهذه العناصر أيضاً تاب الله تعالى عليهم توبتين ..

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

توبة ناتجة عن ندمهم وما في ضمائرهم من حياة ، تُزيل عنهم الإثم الذي وقعوا به ، وتوبة تقرّبهم إلى الله تعالى إلى درجة ليعودوا فيكونوا فيها بمستوى العناصر الثلاثة في الآية الأولى بعد التوبة الأولى عليهم ..

.. ففي الآية الأولى نرى أنَّ توبة الله تعالى على العناصر الثلاثة كانت نتيجة اتّباعهم له في ساعة العسرة ، أي نتيجة عمل وليست مسبوقة بتقصير أو عمل سوء ، وتوبته الثانية عليهم ليس ليتوبوا كحال الذين خُلِّفوا في الآية الثانية ، لأنَّهم في الأصل لم يقصّروا وقاموا بواجبهم في اتّباع الله تعالى ..

بينما في الآية الثانية رأينا أنَّ التوبة الأولى على الذين خُلِّفوا من العناصر الثلاثة في الآية الأولى كانت إيقاظاً لضمائرهم وإشعالاً للندم في نفوسهم ، بعد تقصيرهم وعدم قيامهم بما يجب أن يقوموا به ، وتوبته الثانية عليهم كانت منّاً من الله تعالى عليهم ليعودوا إلى الله تعالى كحال العناصر الثلاثة في الآية الأولى في توبة الله تعالى الأولى عليهم ..

ب – في الحالتين ، نرى تراخياً بين التوبة الأولى والتوبة الثانية ، فورود كلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ بين التوبتين نراه في الحالتين .. وفي الحالتين نرى أنَّ التوبة الثانية هي مَنٌّ من الله تعالى ، ففي الآية الأولى سبب هذا المنُّ هو ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ .. وفي الآية الثانية سبب هذا المنُّ هو ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ..

.. وما بين دلالات هاتين العبارتين [[﴿ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ ،، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾]] نتلمَّس – إضافة لدلالات هاتين الآيتين الكريمتين – الفارق بين العناصر الثلاثة في الآية الأولى : ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ ، وبين العناصر الثلاثة الذين خُلِّفوا عنهم في الآية الثانية : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ ..

ففي العبارة القرآنيّة ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ نرى أنَّ رحمة الله تعالى هنا خاصّة بهم كونهم متَّبعين لله تعالى ، وكلمة ﴿ بِهِمۡ ﴾ جلية في ذلك .. وهذا يدلّ على رفعة هذه العناصر وقربها من الله تعالى ..

أمّا في العبارة القرآنيّة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فنرى توبة الله تعالى ورحمته عامّة وليست خاصّة بهم ، فهؤلاء الذين خُلِّفوا استفادوا في توبة الله تعالى الثانية عليهم من صفتي الله تعالى ﴿ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وهما صفتان للجميع وليستا خاصّتين بهم ..

.. من كلِّ ما سبق ندرك أنَّ العناصر الثلاثة ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ أعلى من العناصر الثلاثة الذين خُلِّفوا ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ .. ونرى أنَّ العناصر الثلاثة الذين خُلِّفوا بعد توبة الله تعالى الثانية عليهم ، أصبحوا بحال العناصر الثلاثة في الآية الأولى بعد توبة الله تعالى الأولى عليهم ..

١٠ – .. إذاً .. نحن أمام ستة عناصر .. العناصر الثلاثة ﴿ ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ .. والعناصر الثلاثة الذين خُلِّفوا عن اللحاق بها ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ ..

.. وهذه العناصر الستّة بإطلاق دلالاتها وتجريدها عن الإسقاط التاريخي في الجيل الأوَّل ، تُمَثِّل : ثلاثة عناصر : عنصر الخلاص والنقاء والطهارة في كلِّ زمانٍ ومكان ،

وعنصر الهجرة عن الباطل إيماناً بالخلاص والنقاء والطهارة في كلِّ زمانٍ ومكان ، وعنصر نصرة هذا النقاء والخلاص والطهارة في كلِّ زمانٍ ومكان ..... وتمثّل أيضاً : ثلاثة عناصر أُخرى ، خُلِّفت عن الالتحاق بهذه العناصر الثلاثة في كلِّ زمانٍ ومكان ، كما بيّنا ..

.. وتأتي الآية التالية مباشرة لتصوِّر أحكاماً مطلقة لا يمكن حصرها في جيلٍ أو مكانٍ أو زمان ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

وهذه الدعوة العامّة ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ هي خطابٌ مباشر من الله تعالى لكي يتّقيه المؤمنون بصدق ، وبالتالي لكي يتّبعوه ، وبالتالي ليكونوا من العناصر الثلاثة الأولى ..

.. وتأتي الآيتان التاليتان مباشرة في بيانٍ يحض المؤمنين لكي يكونوا من العناصر الثلاثة الأولى ..

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠ – ١٢١]

.. ونرى في هاتين الآيتين :

١ – في العبارات القرآنيّة ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، لا بدَّ من تعريف كلمة ﴿ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ وكلمة ﴿ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ ..

.. بيّنت في كتبي أنَّ كلمة ﴿ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ في كتاب الله تعالى تعني الجانب المادّي الحضاري للتجمعات البشريّة ، وأنَّ كلمة ﴿ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ في كتاب الله تعالى تعني الجانب الفكري والعقائدي والاجتماعي لهذه التجمعات ..

وبيّنت أنَّ كلمة ﴿ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ في كتاب الله تعالى تعني الذين يزعمون الكمال والتمام والخلو من العيب والنقص مع أنَّهم نقيض ذلك ، وبيّنت أنَّ كلمة ﴿ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ لا تعني سكان البادية كما تذهب تفاسيرنا الموروثة ..

والتفسير التاريخي بحصر عبارة ﴿ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴾ بأهل المدينة المنوَّرة تاريخيّاً أيّام النبيّ ﷺ ، هو تفسير لا يتجاوز الأحداث التاريخيّة الخاصّة بالجيل الأوَّل دون غيره من الأجيال اللاحقة ، ونحن لا ننكر أنَّ المدينة المنوَّرة كتفسير تاريخي معنيّة بهذه العبارة القرآنيّة .. ولكن .. هذا تفسير تاريخي ، والأولى بتفسير كتاب الله تعالى هو التفسير المجرَّد عن التاريخ والمبني على الصياغة اللغويّة لكتاب الله تعالى ..

والتفسير التاريخي بحصر دلالات كلمة ﴿ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ بسكان البادية ، هو أيضاً تفسيرٌ مبنيٌّ على تصوّرات تاريخيّة لا تتجاوز مفاهيم تاريخيّة ، هي في أصلها ليست سليمة ، فليس من المعقول أن يصف الله تعالى مجتمعاً ما بأنَّه أشدّ كفراً ونفاقاً : ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩٧] ، وذلك بسبب حالته الإقليميّة والوظيفيّة ..

٢ – وفق النظر إلى كتاب الله تعالى على أنَّه فوق التاريخ والزمان والمكان ، فإنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ تعني أنَّه لا يجوز لمن يملكون الأدوات المادّية والحضارية والتي تمكّنهم من نصرة المنهج واتّباعه ، ومن حولهم من الذين يزعمون الإيمان والكمال والتمام ، لا يجوز لهم أن يتخلَّفوا عن منهج الله تعالى ونصرته ، ولا يجوز لهم أن يضعوا مصالحهم الدنيويّة فوق منهج الله تعالى ..

.. ولذلك ترد العبارة القرآنيّة ﴿ رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ بصيغة الرسالة من الجذر (ر ، س ، ل) ، دون أيِّ صياغة أُخرى .. فهذه الصيغة – كما نعلم – تتعلّق بمنهج الله تعالى ..

فاتّباع الله تعالى في العبارة ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ ، تنوب عنه في هذه الآية الكريمة العبارة ﴿ رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ .. فهذه الصيغة ﴿ رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ بدلالاتها المجرَّدة عن التاريخ ، تعني منهج الله تعالى .. صحيح أنَّها تعني في الجيل الأوَّل محمّداً ﷺ ، كونه ﷺ كان حاملاً ومبلِّغاً لمنهج الله تعالى في الجيل الأوَّل ، ولكنَّها كدلالة مجرَّدة عن التاريخ تعني منهجَ الله تعالى .. والآية الكريمة التالية بدلالاتها المجرَّدة عن التاريخ والتي تُخاطب السامع في كلِّ زمانٍ ومكان تؤكِّد ذلك ..

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

.. والآية الكريمة التالية بدلالاتها المجرَّدة عن التاريخ تؤكِّد ذلك ..

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥]

٣ – بقيّة العبارات القرآنيّة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ تبيّن عطاء الله تعالى لهم في حال اتّبعوا منهجه : ﴿ رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ و لم يتخلّفوا عنه ، ودلالاتها واضحة وبيّنة ..... ونحن في هذا السياق نُلقي الضوء على الدلالات المطلقة لهذا النصِّ الكريم فوق التاريخ والزمان والمكان ..

.. المشكلة في الموروث التفسيري ، وحتى في الفكر المحسوب على الإسلام ، أنَّه لا ينظر ولا يستطيع النظر إلى كتاب الله تعالى إلاَّ من منظار روايات فُصِّلت ووُضِعت على قدر ثقافة بعض السابقين وفكرهم ، وكأنَّ كتاب الله تعالى لا يحمل من الدلالات إلاَّ للجيل الأوَّل ، وما علينا – كأجيال لاحقة – إلاَّ إسقاط الدلالات الخاصّة بالجيل الأوَّل – حسب زعمهم – على حياتنا ، بمعنى أنَّ منهج الله تعالى الذي يريده لعباده – كما يتخيّلون – لا يتجاوز جزئيّات الأحداث التاريخيّة للجيل الأوَّل ..

.. هذه الثقافة التي تعتبر دلالات كتاب الله تعالى تحت عباءات بعض السابقين ، والتي تتاجر بمفهوم السلف (في الجانبين السنّي والشيعي على حدٍّ سواء) ، تتناقض مع الكثير من آيات كتاب الله تعالى التي تدعو لتدبّر آياته الكريمة ولتعقّلها ، وبالتالي فهذه الثقافة هي سبب ابتعاد الأجيال المتلاحقة عن إدراك الدلالات الحقّ لكتاب الله تعالى ، وهي سبب تخلّف الأمّة ، وهي سبب بقائها غارقة في مستنقعات العصبيّات التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ..

المهندس عدنان الرفاعي